الآداب
المجلد: 25، العدد: 01، ديسمبر 2025
الصفحات: 322 – 336
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

دَلالاتُ المكَانِ في رسالةِ الدَّارِ عَنْ مُحَاوَرَات الفَار لصَفِي الدِيّن الحلِي (ت750 هـ)

The Significances of Place in Risālat al-Dārʿan Muḥāwarat al-Fār by Ṣafī al-Dīn al-Ḥillī (d. 750 AH)

د. صباح غرايبيّة

جامعة قسنطينة 1، الإخوة منتوري – الجزائر، sabah.gheraibia@umc.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2025/05/21 **تاريخ القبول:** 2025/10/14 **تاريخ النشر:** 2025/12/11

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى تحليل "دلالات المكان في رسالة الدّار عن محاورات الفار"، التي قدّم فيها الحليّ المكان كشخصيّة سرديّة متعددة الأبعاد، تحمل رموزًا فلسفيّةً واجتماعيّةً وسياسيّة تعكس الهويّة والذات، وهو في ذلك لا يستخدمه بوصفه خلفيّة للأحداث فحسب، بل كمرآة لصراعات السّلطة والمقاومة، وجسراً يربط الماضي والحاضر، مع إبراز التحوّلات الاجتماعيةّ والرّوحية التي شهدها المجتمع.

وقد أسفرت الدّراسة عن عدة نتائج توزّعت بين؛ فاعليّة المكان في تجسيد الهويّة الإنسانيةّ، و;قدرته على كشف الصّراعات الطبقيّة والاجتماعيّة، عكس الحالة النفسيّة والجمعيّة للأفراد، وهو ما يدل على براعة الحليّ في دمج الواقع الاجتماعي والسّياسي (للعصر المملوكي) ضمن أسلوبٍ سرديٍّ مبتكر، ويجعل الرّسالة وثيقةً تاريخيةً وأدبيةً مهمة، مازالت بحاجة لكثير من الكشف والتّحليل.

كلمات مفتاحية: *دلالة؛ المكان؛ السّرد؛ رسالة الدار؛ الحلي.*

Abstract:

This study aims to analyze *The Significances of Place in Risālat al-Dārʿan Muḥāwarat al-Fār by Ṣafī al-Dīn al-Ḥillī*, in which he presented the place as a multi-dimensional narrative character. In doing so, he does not use it only as a background for events, but rather as a mirror for power and resistance struggles. It is a bridge that links the past and the present highlighting the social and spiritual transformations that society has witnessed. The results showed the effectiveness of place in embodying human identity, and its ability to reveal class and social conflicts, reflecting the psychological and collective state of individuals, which indicates Al-Hilli's ingenuity in integrating the social and political reality within an innovative narrative style.

Keywords: *Significance; place; narrative; Risālat al-Dār; Al-Hilli.*

المؤلف المراسل: صباح غرايبية.

مقدمة:

تشكّل دراسة "دلالات المكان في محاورات الدّار عن رسالة الفار" لصفي الدّين الحلي مدخلاً مهمًّا لفهمٍ أعمق للأدب العربي القديمِ وتقنياته السّردية المتميزة، لاسيما وأنّها نموذج غني، مشحونٌ بالدّلالات والمعاني؛ إذ تستند في بنيتها على توظيف المكان بوصفه عنصرا محوريّا في بناء النّص الأدبي، متجاوزًا دوره التقليديَّ كخلفيةٍ للأحداث ليصبح محركًا أساسيًا للسرد ومولدًا للمعاني والدلالات. وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تسلّط الضّوء على براعة الأدباء العرب القدامى في استخدام المكان كأداة سرديّة معقّدةٍ، تحمل أبعادًا رمزيةً واجتماعيةً وفلسفيةً عميقة، متّخذة من تحليل دلالات المكان في هذه الرّسالة سبيلاً لمواجهة إشكالية محوريةٍ تتمثّل في كيفية توظيف المكان لنقل رؤى اجتماعيّة ونفسية وسياسيّة في إطار أدبي متميّز، وتطرح بواسطتها سؤالين جوهريين:

- كيف استطاع الحلي أن يحوّل المكان –وتحديدا الدار– إلى شخصية محوية تحمل صوتًا سرديًا فريدًا؟
- وما الدّلالة التي يحملها المكان فيما يتعلق بقضايا الهوية والسّلطة والمقاومة والذّاكرة الجمعية؟

وللإجابة عنهما يتبنّى البحث منهجًا تحليليًا يجمع بين التحليل الأدبي والنقد الثقافي، مستفيدًا من نظريات السّرد الحديثة، ومفاهيم جمالية المكان في النقد المعاصر.

ويهدف هذا المنهج إلى تفكيك النّص وإعادة قراءته في ضوء السّياقات التّاريخية والاجتماعية، مع التّركيز على الأبعاد الرّمزية والجماليّة للمكان، وعلى هذا الأساس تكتسب هذه الدّراسة أهميّة خاصة في سياق إعادة تقييم التّراث الأدبي العربي وإبراز جوانبه الإبداعية التي قد تكون مغفلة، كما أنّها تسهم في فهم أعمق لتطور الأساليب السّردية في الأدب العربي، من خلال استكشاف كيفية توظيف الحلي للمكان كأداة للتعبير عن قضايا عصره وهمومه الفكرية.

1.فاعلية حضور المكان في الأدب العربي القديم:

سجّل المكان حضورًا قويًا ومتنوعًا في الأدب العربي القديم، فتجلى بدلالات عميقة في كل من الشّعر والنّثر، عاكسًا عمق الوعي الأدبي والفكري لدى العرب القدامى، الذين استطاعوا تحويله من مجرد خلفية للأحداث إلى عنصر فاعل في بناء المعنى وتشكيل الرّؤية الفنيّة.

1.1 المكان في الشعر العربي القديم– من الأطلال إلى الرمز:

تطوّر حضور المكان النّص الشّعري العربي القديم من كونه خلفيّةً ماديّة إلى رمز يحمل معانٍ روحية وثقافية واجتماعيّة؛ بداية مع الشّعر الجاهلي أين برزت الأطلال والصّحراء كعناصر أساسية في بناء القصيدة[1]، فكانت الأطلال رمزًا للزّمن والذّاكرة، بينما جسّدت الصّحراء العلاقة بين الإنسان والطّبيعة، وفي هذا السّياق يتجسّد المكان (الأطلال) في مطلع مُعلقة امرئ القيس، بوصفه محورًا جوهرياً لبناء القصيدة وسيرورة أحداثها، وتفاعلها مع الشّخصيات يقول فيه:

قِفَا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزل * بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ**

فـ "سقط اللّوى" و"الدّخول" و"حومل"[2] هي أسماء لأماكن حقيقيّة في شبه الجزيرة العربيةّ، لكنّها تتجاوز بعدها الجغرافي لتصبح رموزًا للذكرى والزّمن الماضي. يقف الشّاعر إذا على هذه الأطلال، يستدعي صاحبه للوقوف معه والبكاء، في مشهدٍ يجسّد علاقة الإنسان العميقة بالمكان، وبذلك "اكتسب المكان دلالةً رمزيّةً بعد شحنه بمعانٍ ذاتيّةٍ تعبّر عن أحاسيس الحبّ والوفاء والولاء للمكان بوصفه جزءا من هويّة (الفرد) القبيلة أو الأمّة"[3]؛ فالأطلال هنا ليست مجرّد بقايا ديار، بل هي جسر يربط الحاضر بالماضي، والواقع بالذكريات.

وفي شعر الفتوحات الإسلاميّة، أصبح المكان رمزًا للإنجاز والفخر القومي "فوصف الشّعراء هذه المناطق البعيدة التي وُطئت لأول مرة، ورأوها تختلف في جوّها وطبيعتها ومظاهر حياتها اختلافًا بيّنًا عمّا عهدوا في جزيرتهم"[4]. فحديثهم عن المدن المفتوحة والأراضي الجديدة في الشّعر لم يكن مجرّد توثيق جغرافي، بل كان تعبيرًا عن التوسّع في الهويّة والانتماء؛ إذ أصبحت هذه الأماكنُ الجديدةُ جزءًا من الوطن الإسلامي المتميّز. أما في الشّعر الأندلسي فقد برزت جماليّة المكان بوصفه فضاءً يجمع بين البعد الحسّي والمجازي؛ حيث لا يقتصر على تصوير الطّبيعة أو المشاهد الخارجيّة فحسب، بل يتحوّل إلى رمز يعبّر عن المشاعر الدّاخليّة والتّجارب الرُّوحيَّة للشّعراء (الاغتراب، الشّوق، الحنين، الهويّة)، يقول ابن زيدون في هذا المعنى:

أضحى التّنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

في هذا البيت يتحوّل المكان إلى رمز للفراق والاشتياق، مستمدًا دلالاته من التّراث الشّعري العربي القديم حيث مثّلت الأطلال جسرا بين الحاضر والماضي، وبين الحب والذّكرى، وهو ما يتناغم أيضا مع التصوّر الصّوفي للمكان الذي يجعله فضاءً للتّعبير عن التّجربة الرّوحيّة والوجدانيّة، فيتجاوز المكان بعده المادّي ليصبح تجسيدا للرّحلة نحو المطلق والمعرفة الإلهيّة. ويظهر هذا التّوظيف الفريد بوضوح في قصائد ابن الفارض وابن عربي، وفيهما يتحوّل المكان إلى مرآة تعكس الحالات الرّوحية والمقامات الصّوفية، وينتقل من ارتباطه بالفضاء الفيزيائي إلى الدّلالة على الفضاء الرّوحي المعبّر عن مراحل الرّحلة الباطنة للعارف، مجسّدًا بذلك عمق التّجربة الصّوفية وتعقيداتها الرّوحية والفلسفيّة.

2.1 المكان في النثر العربي القديم –من الوصف إلى البناء السّردي:

شغل المكان في النّثر العربي القديم موقعًا مركزيًّا وحيويًّا في بناء السّرد وتشكيل الدلالة؛ حيث يتجاوز بُعده الجغرافي ليصبح عنصرا فاعلا ينبض بالحياة. ففي أدب الرحلات مثلا، يستأثر المكان بوظيفة البطل الرئيس للسرد، وهو ما يظهر في وصف ابن بطوطة الدقيق والمفضل للأماكن التي زارها، وجعلها محور سرده وأساس بناء نصّه، فتبلورت رحلته بذلك عبر تفاعل الرّاوي مع الفضاءات المختلفة، ممّا أضفى على النص ديناميكية وحيوية، وعكس التّنوع الثّقافي والجغرافي الذّي شهده العالم الإسلامي آنذاك.

وبتطور النّثر، يتخذ المكان أبعادا جديدة في أدب المقامات؛ حيث يوظَّفُ بطريقةٍ فريدةٍ لخدمة النّقد الاجتماعي والسّياسي، وهو ما تعرضه مقاماتُ الهمذاني والحريري، ففيهما تتبدل الأمكنة والفضاءات لتخلق سّياقات سرديةّ جديدة تتفاعل مع الأحداث والشخصيّات، ما يحوّل المكان إلى إطار نقدي يعكسُ قضايا المجتمع وتناقضاتهِ، ويجعل النّص مرآةً تعكس الواقع الاجتماعي والسّياسي بمرونة وذكاء، دون أن نغفل خاصيّة التنوّع والمرونة التي يمتلكها المكان التي جعلته عالما سحريا، يمزج بين الواقع والخيال، تماما كما في الحكاية الشعبية "ألف ليلة وليلةّ " التي غدا فيها المكانُ فضاءً متعدد الأبعاد، يسمح بتقديم رؤى اجتماعيّة وفلسفيّة عميقة، ويمنح النّص قدرة على استكشاف الانسان ومجتمعه عبر رموز ودلالات متجدّدة.

أما في قصّة "حي بن يقضان "لابن طفيل، فيتحوّل المكان إلى رمز للرّحلة الروحية والمعرفية، وتصبح فيه الجزيرة مسرحًا لرحلة اكتشاف الذّات والكون، وتتجاوز دلالته حدود المادي لتصبح تمثيلًا فلسفيًّا وروحيًّا، يعبر عن مراحل النمو الداخلي للإنسان وارتقائه نحو الحكمة والوعي.

وبهذا الشّكل، يتّضح أن المكان في النّص الأدبي القديم ليس مجرد خلفية سردية للأحداث فحسب، بل هو عنصر مركزي متعدد الأبعاد، يجمع بين الوظيفة السّردية، والجماليّة، والرّمزيّة الفلسفيةّ، والبعد النّقدي، ويعكس في مرونة لافتةٍ تَفَاعُلَ الإنسان مع محيطه المادّي والرّوحي والثّقافي، عبر نصوص شعريّة ونثريّة غنيّة ومتنوّعة.

2. قراءة في رسالة الفار –تجنيس النّص ودلالات الخطاب:

تُنسب "رسالة الدّار عن محاورات الفار"[5] للشّاعر والأديب صفيّ الدّين الحلي (677-750هـ)، وهي نصّ نثري كتبه خلال إقامته في مدينة ماردين، موضحا في بدايته دواعي تأليفها قائلا: "...وأنشأتها عن لسان الدّار التي أسكنها بماردين، وتعرف بدار ابن الكنّاس، إلى القلعة الشّهباء. وأرسلتها إلى السلطان الملك الصالح أبي المكارم شمس الدين أشكو بفحواها مماطلة نائب له بدين، كان بضعه لي، وبعضه على يدي، بمبلغ طائل كتبه على نفسه، وأخرجه على مصالح الدّولة، وتعذر عليه وفاه. ولم أؤثر مخاشنته لسابق صحبة بيننا. فأنشأتها على سبيل الخلاعة والمزاج. فلما وقف السُّلطان عليها أطلق المال من خزانته العالية"[6]، وتمام الرّسالة في سبع صفحات من القطع المتوسط، وتتميّز بأسلوبها الأدبي المبتكر وموضوعها الفريد؛ حيث تقدّم حوارًا تخيُّليًا بين الدّار والفئران، مستخدمة المكان باعتباره شخصيةً محورية وراوية للأحداث، وتستخدم الفئران كوسيلة للتعليق على الأحداث وتقديم وجهات نظر مختلفة؛ إنها حكاية تنسج كيانها من مصادر كثيرة "غالبا ما تنطوي على شبكة دلالية خاصة، تَشِي بهدف يكتسب أحيانا سمة الحكمة"[7]، وابتداؤها بتقديم الدّار لنفسها، وهي "دار ابن الكنّاس"، مخاطبة القلعة الشهباء وشاكية حال ساكنها الجديد (الشّيخ صفي الدين الحلي)، فتصف الدار حالها وكيف كانت مهجورة قبل قدوم الشّيخ، ثمّ كيف عادت للحياة بحضوره، لتصبح مركزًا للأدب والشعر والمجالس، ويظهر دور الفئران في الرسالة من خلال حوار بين فأرتين تناقشان حال الدار وساكنها، فتقدّم الفئران وجهة نظر مختلفة عن الأحداث؛ حيث تصف كيف كانت الدّار مليئة بالطعام والشراب قبل أن يتورّط الشّيخ في الديّون، وكيف أصبحت الآن خالية. وبالمزج بين النّثر الفني والسّجع والشّعر، واستخدام الاستعارات والكنايات والصّور البلاغية بمهارة عالية قدّمت الرّسالة صورة حيّة ومعقدة للمجتمع في عصر الكاتب، متجاوزة حدود زمانها ومكانها لتخاطب قضايا إنسانية خالدة منها:

- **تحوّلات المجتمع**: تصوّر الرّسالة التغيرات الاجتماعية، من خلال وصف تحولات الدّار وساكنيها، وهو ما يظهر في حديث الفئران عن تغيّر حال الدار.

- **النّقد الاجتماعي والسّياسي**: تجلى النقد الاجتماعي والسّياسي في الرسالة في المقاطع التي تتعلق بديون الشيخ، والعلاقات مع السّلطة.
- **الهويّة والانتماء**: تستكشف الرّسالة هذه المفاهيم من حيثيات علاقة الدّار بساكنيها وبالقلعة الشهباء.
- **الزّمن والذّاكرة**: تتناول الرّسالة هذه المفاهيم استنادا إلى وصف الدّار لتاريخها وتحوّلاتها، وكذلك ذكريات الفئران عن الماضي.
- **الفكاهة والسُّخرية**: وقد تجلّت بوضوح في الرّسالة في حوارات الفئران التّي تضمّنت نقدًا ساخرًا للأوضاع الاجتماعيّة والسّياسيّة.

وفي النّهاية، تختتم الرّسالة بتوسُّل الدّار للقلعةِ الشّهباء أن تتدخّل لمساعدة ساكنها (الشّيخ) في أزمته، مؤكّدة على ولائها وطاعتها للقلعة. وفي هذا التّوسّل إسقاط واضح للواقع السياسي والاجتماعي آنذاك، وهو ما تكشف عنه دلالات الأمكنة في الرّسالة لاحقا.

3. التّشكيلات المكانية:

قدّم صفي الدّين الحلي عبر تشكيلات مكانيّة متعدّدة صورة حيّة ومعقّدة للمجتمع في العصر المملوكي، متجاوزًا الوصف السّطحي للمكان إلى استنطاقه وجعله عنصرًا فاعلاً في بناء المعنى وتشكيل الرّؤية الفكريّة والجماليّة للنّص، فثبوت "معالم المكان منحت الرّاوي فرصة البوح بما لديه، بل إنه استرسل في وصفه الفضاء الزماني الذي لا يبتعد عن أثر المكان"[8]، واستنادا إلى مفهوم المكان الذّي يحيل على" مجموعة من الاشياء المتجانسة (من الظواهر، أو الحالات، أو الوظائف،...)، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانيّة المألوفة /العاديّة (مثل الاتصال، المسافة)[9]، يمكن رصد أنواع الأمكنة في الجدول التالي:

نوع المكان	التواتر (تقريبًا)	الدلالات
الدّار	20–15	–الذات/الهويّة –الوطن –المجتمع –الزمن الماضي والحاضر
القلعة الشهباء	10–8	–السلطة –العلوّ والرّفعة –الحماية
ماردين (المدينة)	3–2	–الموقع الجغرافي –الهوية المكانية
المطبخ	5–3	–مركز الحياة اليومية –الرخاء والوفرة
الشُّبَّاك الحديد	3–2	–نقطة الاتّصال بين الداخل والخارج –الحدود بين العالمين
البستان	4–3	–الجمال والنضارة –الحياة والتجدّد
الإيوان	3–2	–الفخامة والأبهة –مكان الاستقبال والمجالس

الخزائن	6–4	–الثروة والوفرة –الأمن والاستقرار
المسلخ	2–1	–التحوّل والتغيّر –مكان الفئران
الفردوس	2–1	–المكان المثالي –الملاذ والراحة
بلاد الشّام	2–1	–الغربة –التحوّل في الحياة
البركة والفوارة	3–2	–الحياة والنشاط –الجمال والتّرف
الأثافي	1	–الثّبات والاستقرار والأصالة
الحُبّ (وعاء)	2–1	–الخصوصية والألفة –المأوى الصّغير
الجُبّ	1	–العمق والخفاء –المخاطر

يكشف هذا الإحصاء عن تنوّع ثريّ في الأمكنة المذكورة في رسالة الحلي، مع تباين واضح في أهمّيتها ودلالاتها، ويمكن تقسيم هذه الأمكنة إلى عدّة فئات رئيسة:

1.3 الأمكنة المحوريّة: تعتبر الدار أكثر الأمكنة حضورًا وأهميّة (15–20 مرّة)، وتحمل دلالات متعدّدة ومعقّدة تشمل الهوية، الوطن، المجتمع، والزمن، ممّا يؤكّد مركزيّتها في بناء الرّسالة بوصفها محور السّرد ومحرّكه، في حين تأتي القلعة الشّهباء في المرتبة الثّانية (8–10 مرّات)، وترمز للسّلطة والعلوّ، ممّا يشير إلى أهميّتها في استحضار معاني القوّة في النّص.

2.3 الأمكنة الداخلية للدّار: يمثّلها المطبخ، الشُّبَّاك الحديدي، الإيوان، الخزائن؛ إنها أجزاء مهمّة من الدّار، وكلّ منها يحمل دلالات خاصّة تعكس جوانب مختلفة من الحياة اليومية والاجتماعية، أما البركة والفوارة فتضيفان بعدًا جماليًا وحيويًا للمكان.

3.3 الأمكنة الخارجية: وتتجسّد من خلال حضور ماردين، وبلاد الشّام اللّتان تربطان النّص بالسيّاق الجغرافي والتّاريخي الأوسع، في مقابل البستان الذّي يمثّل مساحة وسيطة بين الدّاخل والخارج، ويحمل دلالات الجمال والتجدّد.

4.3 الأمكنة الرّمزية: ويمثله "الفردوسّ باعتباره مكانا مثاليا متخيلاً، وهو نقيض للحياة البائسة والمريرة الواقعية آل إليها حال الشّيخ، الدّار والفئران، أمّا "الجبُّ"، فقد يشير إلى الجوانب الخفيّة أو المظلمة في القصّة، لما يرتبط به في الوعي الجمعي من دلالات العمق والخفاء.

5.3 الأمكنة الهامشيّة: وهي في هذا النّص"المسلخ"، "الأثافي"، وعلى حضورها المحتشم قد أضافت أبعادًا دقيقة للحياة اليومية والثقافية المادية.

ويكشف تحليل تشكيلات حضور الأمكنة في "رسالة الدّار عن محاورات الفار" وأنواعها، عن براعة استثنائية في توظيف المكان كأداة سرديّة وفكريّة متعدّدة الأبعاد، إذ يظهر تدرّج واضح في أهميتها، من الدّار باعتبارها فاعلا رئيسا، إلى أماكن أخرى ذات دلالات مهمّة، مع تنوّع ملحوظ في الدّلالات بين الماديّة والرّمزية، يتشكّل بواسطتها نسيج متكامل يعكس بنية المجتمع وعلاقاته، مع إبراز البعد الزمني من خلال الإشارات إلى الماضي والحاضر، كما تبرز التناقضات المكانية من خلال المقارنات بين أماكن مختلفة أو ما يعرف بالتّقاطبات" التي تصف الامكنة وتبحث في دلالاتها في شكل ثنائيات ضدية ،بحيث تعبر عن العلاقات والتوترات بين قوى وقيم متعارضة "[10]، ممّا يجعل المكان مرآة تعكس طبقات المجتمع وتحوّلاته.

4. دلالات المكان في رسالة الدّار عن محاورات الفار:

لقد مكّن عُمق التّفاعل بين الإنسان ومحيطه "صفي الدين الحلي" من توظيف المكان لتقديم رؤية متكاملة حول الهويّة الإنسانية، السّلطة، الصّراع الطبقي، والتحوّلات الاجتماعية والثقافية. ولعل الجدول التّالي محاولة لاستكشاف دلالاته المترشحة عن بنية الحكاية، "لتكون منظومة متكاملة تؤشر لمختلف القضايا التي تشغل مركزا أساسيا من اهتمامات المجتمع الإنساني آنذاك"[11]، وتعكس تجارب الأفراد، وتسلّط الضوء على قضايا اجتماعيّة ونفسيةّ معقّدة:

المكان	التحليل	الشّاهد من النّص	الدّلالة
الدّار	تُعتبر الدار شخصية حيوية تعكس تجارب الأفراد وتقدّم صورة حيّة عن الوجود الإنساني، ممّا يجعلها مركزية في السّرد	"وهذه المملوكةُ المظلومةُ، والمرحومةُ المحرومةُ، الموحشةُ بعدِ الإيناس"	تجسيد الذات والهويّة
القلعة الشهباء	يُظهر الحلي كيف أنّ القلعة تمثّل القوّة المطلقة، ممّا يعكس كيف أنّ السّلطة تبقى بعيدة عن معاناة العامّة	"شَيَّدَ اللهُ بُنيانَها، وأبَّدَ سُكَّانها، وخَلَّدَ مُلكَ مالِكِها"	رمز السلطة والقوّة
الإيوان	يُبرز التغيّر الثّقافي الذّي يشهده المجتمع، حيث يعكس تحوّل الإيوان من مركز للثقافة إلى مكان للهوايات	"فَعَلامَ يقوى عزمُهُ، وإلامَ يشتدُّ لهُ حزمُهُ"	مكانة الثقافة والفكر
البستان	يجسّد الأمل في التجدّد، على الرّغم من الظروف الصعبة، يُظهر كيف يمكن لمكان يحمل جمالاً أن يصبح مصدر إلهام للأمل	"وملأَ البِركةَ والفَوَّارَةَ، وأطلقا الماءَ إلى البُستانِ"	رمز الجمال والأمل

المطبخ	يُظهر التحوّلات الاقتصادية التي تؤثّر في حياة النّاس، حيث يمثّل المطبخ الفجوة بين الماضي والحاضر	"ولم تَزلْ خَزائِنُهُ مَلأَى من المأكُولِ والمشرُوبِ، والمعاجِينِ والرُّبُوبِ... فإذا هي اليومَ أقفرُ مِنَ الفَلاةِ"	تجسيد التغيّرات الاقتصادية
الشّباك الحديدي	يُعبّر عن التوتّر بين الرّغبة في الحريّة والقيود المفروضة من السّلطة، ممّا يُبرز الصّراع الدّاخلي بين الأفراد وواقعهم	"ثُمَّ مشى ورُفقتُهُ حتّى جلسَ بِالشُّبَّاكِ الحَدِيدِ، المُشرِفِ على بابِ الحَديدِ"	الحدود بين السّلطة والمقاومة
الخزائن	تمثّل الذكريات والتاريخ، حيث تعكس كيف فقدت القيم التّقليدية مكانتها، ممّا يُظهر التحوّلات في المجتمع	"فإذا هي اليومَ أقفرُ من الفَلاةِ، وأصغرُ مِنَ الهَبَاةِ"	ذاكرة الحياة اليومية
المسلخ	يُظهر كيف أنّ الفئات المهمّشة تعاني في صمت، ممّا يعكس واقع الحياة القاسية التي تواجهها الطبقات الدّنيا	"إذْ رأتْ الفأْرَ أفواجًا يَهرعونَ من المَسْلَخِ، ويَجْتَمِعُونَ بِالمَطْبَخِ"	رمز الطّبقة الدنيا

يتميّز توظيف المكان في نص الرّسالة بغناه الدّلالي وعمقه الفكري، ويبرز هذا الغنى بشكل خاص من خلال استخدام الثّنائيات المكانية، التي تعكس تناقضات المجتمع وصراعاته؛ فهي لم تقتصر على البعد المادي للمكان، بل امتدّت لتشمل أبعادًا رمزية وفلسفية عميقة، ممّا جعله أداة قويّة للتّعبير عن قضايا إنسانية وفكرية معقّدة.

1.4 الهويّة والاغتراب –المكان تجسيد للنّفس البشرية: ويمكن الوقوف فيه عند دلالتين:

1.1.4 الدار كمرآة للذات الإنسانية: تتجاوز الدّار كونها مجرّد إطار مكاني لتصبح شخصية نابضة بالحياة تعكس التّجربة الوجودية للإنسان بكلّ تعقيداتها، فمن خلال هذا التّشخيص المبتكر، يستكشف الحلي أعماق النّفس البشريّة وتقلّباتها بأسلوب أدبي رفيع،تكون فيه الدّار شخصية رئيسة وفاعلة في السّرد، لاسيما حين تصف حالها قائلة: "وهذه المملوكةُ المظلومةُ، والمرحومةُ المحرومةُ، الموحشةُ ..."، فهي لا تقدّم وصفًا لحالتها فقط، بل تعكس حالة الإنسان في مواجهة تقلّبات الزّمن وجور السّلطة أيضا؛ إذ تجسد هذه العبارات مشاعر الظلم والحرمان، وتشير إلى التحوّل من الأنس إلى الوحشة، وهو تحوّل يمرّ به الإنسان في حياته

2.1.4 التحوّلات المكانية وتأثيرها على الهويّة: تتجلّى قدرة الحلي على جعل المكان مرآة للذات الإنسانية بوضوح عندما تصف الدّار تحوّلها من حال الازدهار إلى الانحطاط، حيث تقول: "لا تجِدُ أنِيسًا في

عِراصِها القِفار، ولا تَسمعُ حَسِيسًا غيرَ صَهِيلِ الفارِ". لا يقتصر هذا الوصف على تصوير حال الدّار فحسب، بل يمثّل رحلة الذّات الإنسانيّة في صراعها مع الحياة. ولعل الانتقال من الأنس إلى الوحشة ومن العمار إلى الخراب، يعكس تجربة الإنسان في مواجهة تقلّبات الحياة وتحدّياتها، وقد عزّز الحلي هذا البعد الوجودي للمكان من خلال استخدام الاستعارات والتّشبيهات، حيث تمنح الدّار صفات إنسانية على سبيل المثال، عندما تقول الدّار: "فكابَدَتْ بعدَهُم هَمًّا وبُؤْسًا، وأقامَتْ فارِغةً كفؤَادِ أمِّ موسى"، تربط معاناتها بمعاناة الإنسان، مستحضرة صورة أمّ موسى كرمز للحزن والفراغ العاطفي. ومن خلال الرّبط بين المكان والعاطفة الإنسانية، تُجسِّدُ الدّار مثالاً حيًّا للتجربة الإنسانية في أبعادها النّفسية والعاطفية، وبذلك يتجلّى التّوظيف العميق للمكان كرمز للهوية والذّات، ممّا يكشف عن براعة الحلي في استخدام تقنيات سرديّة متقدّمة.

2.4 القلعة والدّار –المكان تجسيد للعلاقة بين الحاكم والمحكوم: يمثّل المكان، بوصفه رمزًا للوطن والمجتمع في رسالة الحلي، بعدًا عميقًا وذكيًا في توظيفه كأداة أدبية وفكرية؛ إذ يتجاوز الكاتب الدّلالة المباشرة للمكان ليجعله مرآة تعكس صورة الوطن والمجتمع بكلّ تعقيداتهما، ويصبح هذا التّوظيف الرّمزي فرصة سانحة له لتقديم نقد اجتماعي وسياسي عميق بأسلوب أدبي رفيع، وقد تجلّت هذه الرّمزية بوضوح في وصف الدّار وعلاقتها بمحيطها؛ يقول الحلي: "هذهِ رِسالةٌ أنشأتُها عن لِسانِ الدَّار التي كُنْتُ أَسْكُنُهَا ب "ماردين" المحروسةِ، وتُعرفُ بِدارِ "ابن الكَنَّاسِ" إلى القَلعةِ الشَّهباءِ بِها"، فالدار هنا ليست مجرّد مبنى، بل تمثيل للمجتمع بأكمله، والقلعة الشّهباء آنذاك تمثيل للسّلطة الحاكمة، وهو ما يعكس العلاقة المعقّدة بين الشّعب والحكّام. ووصف الدّار بأنّها المملوكةُ المظلومةُ، والمرحومةُ المحرومةُ، الموحشة، هو تجسيد لشعور الظّلم والحرمان الذّي قد يعيشه المجتمع تحت حكم غير عادل. وفي ذات السّياق يركز الحلي على إبراز التّناقُض بين حال الدّار وحال القلعة في دلالةٍ على التّفاوت الاجتماعي والسّياسي في المجتمع، فبينما تعاني الدّار من الإهمال والتّدهور، تظلّ القلعة شامخة وبعيدة عن هموم الرعيّة، وقد ظهر ذلك في وصفه للقلعة" "القلعةُ الشَّهباءُ. شَيَّدَ الله بُنيانَهَا، وأبَّدَ سُكَّانَها، وخلَّدَ مُلْكَ مالِكِها". الذي جسّد استمرارية السّلطة وثباتها في مقابل تقلّب أحوال عامّة النّاس.

3.4 الثّبات والتغيّر –المكان حلبة للصراع بين الاستمرارية والتحوّل:

أبان المكان في رسالة الحلي عن الصّراع الدّائم والمتجدّد بين الثّبات والتّغيّر؛ حيثُ ركّز على فكرة التّناقض بين بعض الأمكنة الثّابتة وأخرى تتعرّض لتغيّرات جذريّة، ممّا خلق توترًا دراميًا غنيًّا في النّص:

1.3.4 استمرارية السلطة وقوّتها في مواجهة التغيّرات الاجتماعية: بينما تبقى القلعة الشهباء ثابتة، في قوله: "القلعةُ الشَّهباءُ. شَيَّدَ الله بُنيانَهَا، وأبَّدَ سُكَّانَهَا، وخلَّدَ مُلْكَ مالِكِها"، تشهد الدار تحوّلات ملحوظة تعكس واقع المجتمع وأزماته، وقد ظهر ذلك في قوله: "فَلَمَّا تَطَوَّحتْ بِساكِنِهَا الأيَّامُ، إلى أقصى بِلاد الشَّامِ، جفَاها الإخوانُ حِينًا طويلاً، وَهَجَرَهَا الرِّفَاقُ هَجرًا جَمِيلاً"، وفي المقابلة بين الوصفين يظهر التناقض بين ثبات القلعة وتغيّر حالة الدار، ونحسب أنه صراع بين قوى الثّبات، المتمثّلة في السلطة، وقوى التّغيير، المتمثّلة في حياة العامّة التي تمرّ بتغيّرات جذرية.

2.3.4 التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية: يستخدم الحلي المطبخ كمثال بارز على هذه التحولات؛ إذ يصف تحوّل المطبخ من مركز للحياة والوفرة إلى مكان للخواء، قائلاً: "ولم تَزَلْ خَزَائِنُهُ ملأى مِن المأكُولِ والمشرُوبِ، والمعاجِينِ والرُّبُوبِ... فإذا هي اليومَ أقفرُ مِنَ الفَلاةِ، وأصغرُ مِنَ الهَبَاةِ"، وهو التّحول الذي يعكس التّدهور الاقتصادي والاجتماعي الذّي يعاني منه المجتمع، (حالة المطبخ =الفجوة الواضحة بين ماضٍ مزدهر وحاضرٍ قاسٍ).وعلى النّقيض من ذلك يظلّ البستان رمزًا للأمل والتجدّد، يشير الحلي إلى هذا المعنى بقوله: "وملأ البِركةَ والفَوَّارَةَ، وأطلقَا الماءَ إلى البُستانِ، وصفَّا الخُضْرَةَ في الإيوانِ"، وهي دلالة مكينة على الانبعاث والتجدّد رغم الظّروف القاسية.

4.4 السلطة والمقاومة: المكان ساحة للصّراع السّياسي: تتجلّى في الرّسالة دلالات المكان بوصفه ساحة للصّراع بين السّلطة والمقاومة، وفيه تمثل القلعة الشّهباء –السلطة المطلقة، بينما تصبح الدّار رمزًا للمقاومة الصّامتة. وتغدو الأماكن السرّية التّي تتحرّك فيها الفئران (كالجدران والأسقف) فضاءات للمقاومة الخفيّة، حتّى الشّباك الحديدي يمكن قراءته كرمز للحدود بين سلطة الحاكم وحريّة المحكوم، فهذا التّوظيف الرّمزي للمكان يكشف عن فهم الحليّ العميق لقوة السّلطة المطلقة في المجتمع، ويقدّم رؤية ثاقبة لأشكال المقاومة الممكنة في ظلّ الظروف القاهرة، إن محاولة الكشف عن الدلالة" بناء على تركيب النص واعتمادا على منظومة القرائن المبثوثة في مستوى التركيب"[12] قد تميط اللثام على العلاقات الداخلية المتضمنة بين الأمكنة ورمزيّتها، والتي يمكن بيانها على النحو التالي:

- تبرز القلعة الشّهباء –رمزا قويّا للسلطة المطلقة: وصفها الحلي قائلاً: "القَلعةُ الشَّهْباءُ. شَيَّدَ الله بُنْيانَهَا، وأَبَّدَ سُكَّانها، وخَلَّدَ مُلكَ مَالِكِها". وهو الوصف يجسّد قوّة السّلطة وثباتها، حيث تبدو القلعة كيانًا دائمًا ومتعاليًا على التغيّرات التي تصيب باقي أجزاء المجتمع، خاصة وأنه ركز على استخدام كلمات مثل "شيَّدَ" و"أَيَّدَ" و"خَلَّدَ" ليؤكّد على استمرارية السّلطة وقوّتها.
- في المقابل، تصبح الدّار –رمزًا للمقاومة الصّامتة، يتجلى هذا المعنى حين تصف الدّار نفسها قائلة: "وهذه المملوكةُ المظلومة، والمرحومةُ المحرومةُ، الموحشةُ " في انعكاس واضح لحالة الظلم والحرمان التي تعيشها الفئات المقهورة في المجتمع، لكنّه في الوقت نفسه يمثّل شكلاً من أشكال المقاومة من خلال التّعبير عن هذا الظّلم والاعتراض عليه.
- أما الأماكن السرّية التّي تتحرّك فيها الفئران فتمثّل فضاءات المقاومة الخفيّة، يصف الحلي حركة الفئران فيها قائلاً: "إذْ رَأَتْ الفأرَ أفواجًا يَهرعونَ من المِسلِخ، ويَجْتَمِعُونَ بِالمِطْبَخِ"، فهذه الحركة في الأماكن الهامشية والخفيّة تشير إلى أشكال المقاومة السريّة التي تمارسها الفئات المهمّشة في المجتمع، والتّي تسعى للبقاء والمقاومة رغم الظّروف القاسية.

والحلي على هذا الأساس لا يكتفي بوصف الأماكن، بل يحوّلها إلى ساحة رمزية للصّراع بين قوى السّلطة وقوى المقاومة، وهو أسلوب يكشف عن عمق الإدراك لقوة السّلطة في المجتمع، ويقدّم رؤية ثاقبة لأشكال المقاومة الممكنة في ظلّ الظّروف القاهرة، لتتحوّل الرّسالة بذلك من مجرّد نصّ أدبي إلى وثيقة سياسيّة واجتماعيّةٍ هامّة تعكس واقع الصّراع بين السّلطة والمجتمع في تلك الفترة التّاريخية، وتثير تساؤلات مهمّة حول طبيعة السّلطة وإمكانيات المقاومة.

خاتمة:

تمثّل "رسالة الدّار عن محاورات الفار" لصفي الدّين الحلي نموذجًا فريدًا في الأدب العربي القديم لتوظيف المكان كأداة سرديّة وفكريّة متعدّدة الأبعاد، فمن خلال تحويل الدّار إلى شخصية محوريّة وراوية للأحداث، يقدّم فيها رؤية عميقة للواقع الاجتماعي والسّياسي والثّقافي في عصره، وقد كشف هذا التّوظيف المبتكر للمكان عن قدرة الأدب العربي القديم على معالجة قضايا إنسانيّة خالدة بأسلوب فنّي رفيع يتجاوز حدود زمانه ومكانه. وقد خلص البحث إلى عدّة نتائج لعلّ أهمّها:

- يبرز المكان في الرّسالة كتجسيد للهويّة والذّات، ممّا يتيح استكشاف أعماق النّفس البشريّة وتقلّباتها.
- يعمل المكان كرمز للوطن والمجتمع، مقدّمًا نقدًا لاذعًا للأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة.
- يمثّل المكان مسرحًا للصّراع بين الثّبات والتّغيّر، عاكسًا ديناميكيات التّغيير الاجتماعي والسّياسي.
- يوظّف الكاتب المكان كساحة للصّراع بين السّلطة والمقاومة، مقدّمًا رؤية ثاقبة لديناميكيات القوّة في المجتمع.

آفاق البحث:

قد تفتح هذه الدراسة أفق البحث في الأدب العربي القديم وفق مسارات مختلفة:

- تحليل تأثير السّياق التّاريخي والاجتماعي على تصوير المكان في الأدب العربي القديم.
- استكشاف العلاقة بين توظيف المكان في الأدب العربي القديم والنّظريات النّقدية الحديثة
- تحليل الأبعاد الفلسفية والصّوفية لتوظيف المكان في الأدب العربي القديم.
- استكشاف دور المكان في تشكيل الهوية الثقافية والوطنية في الأدب العربي.

الهوامش والإحالات:

[1] كفافي منذر ذيب: الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، ط 1، إربد، الأردن، 2006 م، ص 173.

[2] الشنقيطي أحمد بن الأمين: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار المعرفة، ط 3، بيروت، لبنان، 2007 م، ص 31

[3] الربيعي نجود هاشم: تطور دلالة المكان في الشعر العربيّ الحديث، جريدة عود الندّ، عدد 6، ط 12، 2017، تاريخ الاطلاع: 2025/03/20 https://www.oudnad.net/spip.php?article1876

[4] القاضي النعمان عبد المتعال: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ط 1، 2005، ص 25.

[5] عباس الجرّاخ: رسالة الدار عن محاورات الفار لصفي الدين الحلي (ت 750 ه)، مجلّة مجمع اللّغة العربية بدمشق، المجلد 97، الجزءان (3، 4)، ص ص (356، 374).

[6] أحمد حسن الزيات: مجلة الرسالة، العدد 803، (د ط)، (د ت)، ص 23 (متاح إلكترونيا:https://shamela.ws/book/29674)

[7] عبد الله إبراهيم: المتخيل السردي – مقاربات نقدية في التّناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000، ص17.

[8] ضياء غني لفته، عواد كاظم لفته: سردية النص الأدبي، دار الحامد، عمان، الأردن، ط 1، 2011، ص39.

[9] محمد بو عزة: تحليل النص السردي- تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010، ص (99)

[10] المرجع نفسه، ص 101.

[11] عبد الله إبراهيم: المتخيل السردي، ص17.

[12] المرجع نفسه، ص 21.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

1- الشنقيطي أحمد بن الأمين: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار المعرفة، ط 3، بيروت، لبنان، 2007 م.

2- ضياء غني لفته، عواد كاظم لفته: سردية النص الأدبي، دار الحامد، عمان، الأردن، ط 1، 2011.

3- عبد الله إبراهيم: المتخيل السردي – مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000.

4- القاضي النعمان عبد المتعال: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ط 1، 2005.

5- كفافي منذر ذيب: الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، ط 1، إربد، الأردن، 2006 م.
6- محمد بو عزة: تحليل النص السردي- تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010.

المجلات:

1- أحمد حسن الزيات: مجلة الرسالة، العدد 803، (د ط)، (د ت)، ص 23 (متاح إلكترونيا: https://shamela.ws/book/29674)
2- الربيعي نجود هاشم: تطور دلالة المكان في الشعر العربيّ الحديث، جريدة عود الندّ، عدد 6، ط 12، 2017، تاريخ الاطلاع: 2025/03/20 https://www.oudnad.net/spip.php?article1876
3- عباس الجرّاخ: رسالة الدار عن محاورات الفار لصفي الدين الحلي (ت 750 ه)، مجلّة مجمع اللّغة العربية بدمشق، المجلد 97، الجزءان (3، 4)، ص ص (356، 374).